مُقَدِّمَة

تشهد الحياة الثقافية والفكرية والعلمية في عالمنا العربي والإسلامي منذ نحو قرن أو يزيد ، حركة تفاعل وتمازج من جهة ، وتدافع وتنافٍ من جهة أخرى ، وحركة تجاذب واستقطاب في النهاية .

يجري كل هذا بين مرجعيات ومذهبيات واتجاهات متعددة وأحيانا متباعدة أو متضاربة ؛ وهي ترجع عمومًا إلى أصلين أبويين رئيسيين : الأصل الإسلامي الوطني ، والأصل الغربي الأوربي ، ولا أقول : أصل قديم ، وآخر حديث ؛ لأن كلاً منهما فيه القديم والحديث ، وفى كل منهما وقع الصراع بين القديم والحديث .

وإذا كان النموذج الثقافي الأوربي قد انتصر فيه الحديث على القديم ، نظرًا لضعف القديم وهشاشته الذاتية والواقعية ، فإن كثيرا من أسسه وجذوره القديمة ما زالت قائمة فيه وفاعلة في حركيته .

وأما الأصل الإسلامي الوطني ، فإن القديم فيه قوي متجذر مثلما هو غني متجدد ، وهذا الأمر لا تثبته مظاهر

الانبعاث الحيوية والتجدد فحسب ، بل تثبته أكثر من ذلك محاولات الاقتلاع والاستئصال التي تتكسر مرة بعد أخرى ، وتأتي بنتائج عكسية في كثير من الأحيان ، فما زال الإسلام ـ عقيدة وثقافة وسلوكا ـ مِلْءَ السمع والبصر : إذ كلما أرادوا إطفاءه نوره في مكان انبعث وأشرق في مكان آخر .

ولهذا فإن التدافع الداخلي والذاتي للفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية لا يتجه ـ ولا ينبغي أن يتجه ـ إلى الغلبة والانتصار : للحديث على القديم أو للقديم على الحديث ، أو للأصالة على المعاصر أو للمعاصرة على الأصالة ، أو للمحافظة على التجديد ولا للتجديد على المحافظة . بل يتجه ـ وينبغي أن يتجه ـ إلى التدافع البناء، أي إلى التكامل والتوازن .

في هذا السياق وهذا الاتجاه . تأتي الخلافات والتجاذبات العلمية والفكرية والثقافية داخل الأوساط الإسلامية : بين التجديد والتقليد ، بين المحافظة والمراجعة ، بين الأصالة والحداثة ، بين التجديد والتقليد ، بين المحافظة والمراجعة ، بين الأصالة والحداثة ، بين فتح باب الاجتهاد أو إغلاقه ، أو حراسته وتضييقه ، بين احترام الظواهر وتحكيم المقاصد ... ونحن نعيش نرقب اليوم أطوار ذلك التدافع الساخن الذي يجري في إيران بين « الإصلاحيين والمحافظين » أو بين

« التجديديين والتقليديين » . أو بين « الأصوليين والعصريين » . وهي كلها كلمات لا تعبر بتمام الدقة والإنصاف والموضوعية عن الوصف المناسب لكل طرف ، ولكنها تشير إلى السمات والخصوصيات على وجه الإجمال والتقريب ، مع العلم أن لدى كل طرف نصيبا يزيد وينقص من السمات والخصوصيات المميزة للطرف الآخر .

والمهم عندي الآن هو أن التنافس والتدافع بين التيارات الإسلامية لا يمكن أن يكون فيه غالب ومغلوب ، ومنتصر ومنحدر ، ولا ينبغي لأحد أن يفكر ويتحرك في هذا الاتجاه ، بل ينبغي التحرك والعمل على أساس أن لكل حقه ودوره ، وأن لكل حظه من الصواب ، وأن كل طرف محتاج إلى الآخر ، والأمة بحاجة إلى الجميع.

فللإصلاحيين حقهم ، ولهم حظهم من الصواب ، ولهم نفعهم ودورهم : وهو فتح الآفاق والمسالك للاجتهاد والتجديد ، ولمراجعة ما يحتاج إلى مراجعة ، والتحرر من كثير من الآصار والأغلال التي ما أنزل الله بها من سلطان . ولتشجيع الاستفادة من كل جديد مما هو إيجابي ونافع ، والانفتاح عليه وعلى أهله سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين .

وللمحافظين كذلك حقهم وحظهم من الصواب ، ولهم

مكانهم ودورهم ؛ وهو تثبيت ما لابد منه ، والمحافظة على ما لا غنى عنه من دين الأمة ومن مقوماتها الثقافية والحضارية ، ومنع الإنجرار والإنجراف مع تيار القوة والهيمنة والغلبة الذي يضغط بجبروته العسكري والاقتصادي والإعلامي ، ويفرض علينا اختياراته وإكراهاته بلا هوداة .

وهذا الذي يجري في إيران ليس خاصا بها ، ولا هو خاص بإيران ما يعد الثورة ، بل هو عام ممتد في مختلف العصور وفي مختلف الأقطار والمذاهب الإسلامية ، ولعل خصوصية الحالة الإيرانية إنما تتمثل في كون التدافع والتفاعل يجري داخل دواليب الدولة ومؤسساتها ، مع ما يتبع ذلك من تركيز إعلامي مكثف لأغراض وحسابات لا تخفى .

وبعيدًا عن حسابات الخصوم والمناوئين ، وأماني الطامعين والشامتين ، فإن حركية الفكر الإسلامي وحيوية الثقافة الإسلامية يجب أن تظل متسعة للاختلاف الداخلي ، متحملة للتدافع الذاتي ، لا يستغني فيها جديد عن قديم ، ولا يضيق فيها قديم بجديد ، ما دامت المرجعية العليا للكتاب والسنة ومسلماتهما ومحكماتهما وثوابتهما .

وفي إطار الجهود التجديدية والمبادرات الاجتهادية والإصلاحية للفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية ، يأتي

الاهتمام المتزايد بمقاصد الشريعة الإسلامية . هذا الاهتمام الذي بدأ بنشر كتابَيْ الشاطبي (الموافقات) و (الاعتصام) ، والإقبال عليهما والترويج لهما ولمضامينهما ، ثم تتابع بمؤلفات ودراسات وأبحاث جامعية وغير جامعية ، وبما لا يحصى من المقالات والندوات والمحاضرات . ثم أصبحت (مقاصد الشريعة) مادة دراسية مستقلة في عدد من الجامعات في العالم الإسلامي ، وما زالت العناية بمقاصد الشريعة والإقبال على طلبها في تزايد مستمر ، حتى إنه يمكن اليوم التحدث عن (صحوة مقاصدية) في مجال العلوم الشرعية والدراسات الإسلامية والفكر الإسلامي ، ورغبة مني في مواكبة هذه (الصحوة المقاصدية) وتلبية احتياجاتها والإسهام في إغنائها وترشيد مسارها ، لم أجد بدا من الاستجابة للدعوة الكريمة التي تلقيتها من الأستاذين الفاضلين : عبد الكبير العلوي الإسماعيلي ومحمد سبيلا ، خاصة وأن هذه الدعوة المشكورة جاءت محددة الموضوع، موضوع (مقاصد الشريعة) ، فكان عليّ أن ألبي أولا دعوة الأستاذين الكريمين ، وأن ألبي ثانيا نداء المقاصد .

فها أنذا ـ بفضل الله تعالى وعونه ـ أضع هذه اللبنة الصغيرة ، وأسطر هذه الصفحات المختصرة والميسرة في مقاصد الشريعة وفي الفكر المقاصدي عامة .

أسأل الله تعالى التوفيق والتسديد والمغفرة والرحمة والحمد لله أولاً وأخيرًا .

الرباط : شعبان ١٤٢٠/ نوفمبر١٩٩٩

تنويه : تشكر مجلة قضايا إسلامية معاصرة الأستاذ الدكتور / أحمد الريسوني لإذنه لها بنشر هذا الكتاب في سلسلة كتاب قضايا إسلامية معاصرة .

*****

obeikandl.com